مجلة أسيناگ ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ، العدد الحادي عشر، 2016، ص 37-53

وظيفة الكتابة بالأمازيغية عبر التاريخ

أسمهري المحفوظ
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

Le présent article envisage d'approcher l'histoire du multilinguisme en Afrique du Nord à travers l'étude des fonctions réservées à l'écriture amazighe, depuis l'antiquité jusqu'à la fin du 18ème siècle. Le passage de l'amazighe de l'oral à l'écrit est attesté par les inscriptions dites libyques (l'amazighe de l'antiquité) présentes uniquement dans les stèles funéraires et les dédicaces dédiées aux morts, et par conséquent, liées au domaine religieux. Durant l'antiquité, le Moyen-Age et l'époque contemporaine, les disciplines de la religion étaient le champ privilégié de la littérature amazighe écrite. Ce rattachement fort de la pratique scripturaire amazighe au spirituel a permis aux langues qui le concurrençaient sur son propre territoire, pendant différentes périodes historiques, d'affaiblir la fonction de l'écrit pour la langue amazighe et d'en réduire le domaine d'emploi.

لا يمكن استيعاب تاريخ التعدد اللغوي بشمال إفريقيا دون الوقوف على ما كُتب باللغة الأمازيغية، أو لنقل بالفروع اللغوية الأمازيغية، وذلك لأهمية الكتابة بالنسبة للوظائف المجتمعية لأي لغة، ومن ثمَّ لإشعاعها ولتطورها. لمقاربة الموضوع من هذه الزاوية، نعتقد أنه ينبغي التذكير بمعطيين اثنين أثبتتهما الدراسات الأركيولوجية والتاريخية واللغوية؛ أولهما أن الأمازيغية من أقدم لغات الحوض المتوسطي مثلها مثل المصرية القديمة والفينيقية وغيرهما من الفروع اللغوية المكونة للأسرة اللغوية المسماة الأفرو- أسيوية (Afro-asiatique) أو الحامية - السامية (Chamito-Sémitique). والمعطى الثاني الذي لا شك فيه أيضا هو أن الأبجدية الأمازيغية القديمة (أو الليبية " le Libyque" بمصطلح العصر القديم) هي أول ما كُتِبَت به اللغة الأمازيغية منذ أواخر الألف الأولى قبل الميلاد. لا شك أنه باستحضار المعطيين التاريخيين السالفين تتبادر إلى الذهن أسئلة عديدة، منها: إذا كانت الكتابة بالأمازيغية تقليداً عريقاً في التاريخ، فما نصيب هذه اللغة من التراث الشمال إفريقي المكتوب؟ ما هي المجالات التي استعملت فيها هذه الكتابة ؟ وما هي وظائفها التواصلية؟ هل كان لهذا التراث المكتوب تأثير على المشهد اللغوي بشمال إفريقيا حيث كانت المنافسة بين الأمازيغية ولغات أخرى وافدة على المنطقة؟

سنقتصر في هذا المقال على رصد وظائف الكتابة بالأمازيغية من ماقبل الإسلام إلى أواخر القرن التاسع عشر. وقد استبعدنا ما كتب بعد ذلك لأنه يشكل مرحلة جديدة في تاريخ التأليف باللغة الأمازيغية، لأنها تميزت باستعمال الحرف اللاتيني من طرف الباحثين الغربيين لكتابة هذه اللغة، وبظهور متخصصين في الدراسات الأمازيغية (Les Berbérisants). كما تميزت بإدراج الأمازيغية، ولو على نطاق محدود، في النظام التعليمي للفترة الاستعمارية (بن الطالب، 2010). وهكذا فنحن أمام مرحلة جديدة لها خصوصيات، ربما ينبغي دراستها ومقارنتها بالوضعية الراهنة للتأليف بالأمازيغية، خاصة مع ظهور مؤسسات رسمية تهتم بهذا المجال[1].

بينت العديد من الدراسات أن ما كتب بالليبية (الأمازيغية القديمة) في فترة ماقبل الإسلام[2]، كله كتابات على لوحات حجرية، أو ما يسمى في قاموس البحث الأثري بالنقائش (les Inscriptions).

[1] نقصد تأسيس كل من المندوبية السامية للأمازيغية بالجزائر (1995) والمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بالمغرب (2001).

[2] فضلنا استعمال "ما قبل الإسلام" لتأريخ تطور الكتابة بالأمازيغية، لأن دخول الإسلام، ومعه اللغة العربية، إلى شمال إفريقيا

فقد أحصت المُصنفات (Recueils) ما يقرب من ألف وثلاثمائة نقيشة، نشر أغلبها منذ مطلع الأربعينيات من القرن الماضي (Chabot ,J.B,1940)، وتتركز بالمجال الترابي التونسي والجزائري. أما نصيب المكتشفة منها بالمغرب فما يزال قليلا ((Galond L., 1966، وكذلك الأمر بالنسبة لليبيا (Rebuffat R.,2004).

وبالرغم من أننا لم نستطع بعد قراءة نصوص هذه الكتابة بشكل كامل، فالملاحظ أن جلها له علاقة بالحقل الجنائزي، لأن غالبيتها العظمى شواهد قبور (Stèles) وبعضها إهداءات، منها ما هو منقوش على بنايات جنائزية كالأضرحة. ألم يكن للكتابة الأمازيغية في العصر القديم وظيفة أخرى غير التي لها علاقة بالمقدس أو المعتقد؟ في حدود المعطيات الحالية يمكن أن نقول إنها الوظيفة الأساسية لهذه الكتابة. وربما يعضد هذا الرأي كون الملوك الأمازيغ الذين كتبوا في بعض المجالات المعرفية ألفوا بلغات أخرى (البونية والإغريقية)، رغم أن الأبجدية الليبيةكانت معروفة في عهدهم. ونخص بالذكر هنا الملك النوميدي يَمْبْصَالْ(Victor J.Matthwes, 1972) ويُوبَا الثاني الملقب بالملك العلامة (Gsell, 1927).

هناك نوع من "النصوص الليبية" يطرح أسئلة أخرى، ونقصد هنا النقائش المزدوجة الكتابة (Inscriptions bilingues)، والتي نجدها إما نقائش ليبية بونية (Libyco-Puniques) أو نقائش ليبية-لاتينية (Libyco-Latines). إن اكتشافها في مواقع قديمة بكل من تونس والجزائر والمغرب، وكذا تأريخها بفترات زمنية مختلفة (Rebuffat. R, 2007)، يبين أن الأمر لا يتعلق بظاهرة معزولة في الزمان والمكان، بل إننا أمام تقليد دأب على كتابة الليبية (الأمازيغية القديمة) جنبا إلى جنب مع لغات أخرى كان لها إشعاع كبير في الحوض المتوسطي القديم مثل البونية واللاتينية. يطرح علينا هذه الصنف من النقائش أسئلة عدة حول وظيفة الكتابة بالأمازيغية في العصر القديم، ومنها: هل الفئة أو الفئات الاجتماعية التي تخاطبها هذه النقائش المزدوجة كانت تتقن الأمازيغية واللغة التي كتبت معها؟ هل يتعلق الأمر بترجمة أمازيغية لنص أصلي كتب بالبونية أو باللاتينية؟ هل كتبها شخص يتقن الكتابة بالأمازيغية ولغة أخرى؟ هذه الأسئلة وغيرها لا نملك لها إجابات بسبب شح المعطيات المتوفرة حاليا. أما من الناحية الشكلية، فالملاحظ أن عددا من هذه النصوص المزدوجة يكون فيها النص الليبي (الأمازيغي) أسفل النص البوني أو اللاتيني. فهل يعكس ذلك التراتبية التي كانت للأمازيغية بين لغات الكتابة المتداولة في شمال إفريقيا القديم؟ المؤكد تاريخيا هو انتشار اللغة البونية وتراثها المكتوب بين السكان المحليين الناطقين بالأمازيغية، الأمر الذي جعل الأمراء النوميديين يرثون خزانات الكتب البونية بعد تدمير مدينة قرطاج سنة 146 ق.م (Pline L'Ancien, XVIII,V,22). أما إبان الاحتلال الروماني فنلاحظ التمكين التدريجي للاتينية، خاصة مع انتشار المسيحية بمناطق شمال إفريقيا، وهو ما نتج عنه تدوين تراث إفريقي مسيحي غزير (Monceaux P., 1894). وبالمقابل، لم يعثر لحد الآن على نقائش ليبية-إغريقية، رغم وجود جاليات إغريقية في بعض المدن (Euzenat M., 1971)، وخاصة الموجودة بالقورينائية الليبية (Cyrénaique)، والتي ارتبط تاريخها بهجرات إغريقية (Hérodote, Histoires, II, 120-135).

أطلق باحثون أثريون على بعض النقائش الليبية اسم " النصوص الرسمية" (Textes officiels)، لأنها اكتشفت في موقع مدينة دوكّا القديمة (في الشمال الغربي لتونس) إحدى عواصم المملكة النوميدية الشرقية، وأيضا لأنها تخص ملوكا من الأسرة الماسلية (Masyle) الحاكمة. هل

شكل محطة تاريخية مفصلية بالنسبة للغة الأمازيغية، فمن جهة ستكتب بالحرف العربي، ومن جهة أخرى سيتم تعريب عدة مجالات أمازيغية.

كانت بالفعل للكتابة الأمازيغية القديمة وظيفة رسمية في عهد الممالك النوميدية؟ هناك من نقائش دوكًا من تسمح بهذا الرأي، خاصة إهداء الملك مِكِبْسَا (Micipsa)لأبيه الملك مَسِينِسَا (Massinissa) في السنة العاشرة لحكمه (148 ق.م) والإهداء الآخر المنقوش على ضريح أتبان "Atban" (RIL, 1-2)، لكن مرة أخرى لم تتجاوز وظيفة هذه الكتابة المجال الجنائزي. وما يرجح الارتباط الوثيق للكتابة الليبية بهذا المجال هو عدم استعمالها حتى في كتابة أسماء الملوك الأمازيغ على النقود، الذين ظلوا يفضلون كتابتها باللغة البونية، ثم البونية الجديدة (Néo-punique) واللاتينية في ما بعد. ففي الوقت الذي كان فيه هؤلاء الملوك يسكّون نقودهم وينقشون عليها أسماءهم ولقب الملك باللغة البونية، كانت أسماء الملوك تكتب بالأمازيغية على النقائش الحجرية؛ فما الذي منع هؤلاء الملوك من نقش أسمائهم بلغتهم على النقود؟ أليس ذلك راجعاً إلى كونهم كانوا يفضلون الكتابات المتداولة على نطاق واسع في الحوض المتوسطي القديم؟ ألم تكن القوة الاقتصادية لقرطاج وراء اعتماد لغتها في عملات الملوك الأمازيغ؟

لا تسمح معطيات النقائش الليبية السالفة الذكر بفهم واضح لإشارة فريدة سجلتها المصادر التاريخية المكتوبة حول الكتابة الأمازيغية. يتعلق الأمر بإشارة فيلجونس (Fulgence)، في القرن السادس للميلاد، ورد فيها أن عدد حروف الكتابة الليبية هو 23 حرفا (Rebuffat R., 2004:63-64). يبدو أن السياق الذي وردت فيه هذه الإشارة له دلالة، لأنها جاءت في معرض مقارنة الكاتب بين عدد حروف أبجديات لغات متوسطية[3]. لم يشر فيلجونس إلى اختفاء هذه الكتابة في عهده، وهو ما لا يعضد الرأي الذي يرجح اندثار الكتابة الأمازيغية في مجالها المتوسطي قبل القرن السادس للميلاد.

يستخلص مما تقدم أنه لما أشرف العصر القديم على النهاية في القرن الثامن للميلاد كان ما كتب بالأمازيغية جد محدود، رغم أنها بدأت مشوار الانتقال من الشفاهي إلى الكتابي على الأقل منذ القرن الثاني قبل الميلاد[4]. فلم يحفظ لنا التاريخ طيلة هذه القرون أي تأليف بالأمازيغية، رغم أن الأمازيغ كتبوا بعدة لغات متوسطية (البونية، والإغريقية، واللاتينية). ويبقى احتمال وحيد، لكنه جد ضئيل، وهو أن تكون كتابات بالأمازيغية في الخزانات العلمية للملوك المحليين[5] أو في خزانات قرطاج، وكلها فُقدت أو أُحرقت ولم يصلنا منها شيء. يبقى السؤال الذي لا نملك الآن معطيات للإجابة عنه، كيف عرف فيلجونس عدد حروف الكتابة الليبية إذا كانت نصوصها حجرية فقط واختفت من المجال المتوسطي قبل القرن السادس كما يرجح ذلك جل الباحثين؟

بينت كل الأبحاث التي اهتمت بتاريخ الكتابة الأمازيغية أن الطوارق، أمازيغ الصحراء، هم وحدهم الذين حافظوا على استعمال أبجدية أمازيغية منذ العصر القديم، مرورا بالعصر الوسيط والحديث، إلى اليوم. ومع ذلك، فوظيفة هذه الكتابة بالوسط الصحراوي كان لها بعد رمزي محدود جدا (Aghali-Zakara Mohamed, 1993 :142). وعندما نقارن ما خلفته ساكنة المجال الصحراوي

---

[3] قارن فيها بين الأبجدية الإغريقية ذات 24 حرفا، والعبرية التي لها 22 حرفا، بينما لكل من اللاتينية والليبية (الأمازيغية القديمة) 23 حرفا.

[4] إذا أخذنا فقط بتاريخ نقيشة دوكًا المؤرخة بالسنة العاشرة من حكم الملك الأمازيغي مكيبسا، أي 138 قبل الميلاد. أما بداية ظهور الأبجدية الليبية، فالباحثون لم يتفقوا على رأي واحد، فمنهم من يدافع عن تاريخ قديم لهذه البداية ويقدره بحوالي 1000 قبل الميلاد، بينما آخرون لا تتجاوز تقديراتهم بين القرن 6 والقرن الثالث قبل الميلاد.

[5] أشارت المصادر القديمة إلى مكتبة لملك المغرب القديم يوبا الثاني، وإلى أمراء نوميديين آلت إليهم كتب خزانات قرطاج بعد تدميرها من طرف الرومان.

من كتابات صخرية (Inscriptions Rupestres) بالنقائش الليبية المكتشفة بمجال الممالك الأمازيغية القديمة، يظهر جليا أن وظيفة الكتابة بالأمازيغية القديمة في كلا المجالين كانت جد محدودة. ألم يكن طغيان حياة الترحال على نمط عيش طوارق الصحراء هو ما حال دون تطور وظائف الكتابة رغم استمرارهم في استعمال الأبجدية منذ العصر القديم؟

مما لا جدال فيه أن دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا كان له أثر عميق على المشهد اللغوي، بفعل العلاقة الوطيدة بين الدين الجديد واللغة العربية، ولكن بالخصوص بسبب الهجرات العربية إلى المنطقة. وينبغي التذكير هنا أنه لما أوشك العصر القديم على النهاية تكاد اللغة البونية وكتابتها تختفيان من هذا المشهد اللغوي، بسبب منافسة اللاتينية لها على الأرجح، خاصة وأن هذه الأخيرة هي لغة الدين المسيحي الذي كان له انتشار واسع في شمال إفريقيا القديم. ومن المعلوم أن سكان المنطقة ساهموا بشكل واضح في إغناء التراث الديني اللاتيني المكتوب[6]. ويبدو أن الانتشار السريع للإسلام سرعان ما جعل العربية تقوم بالأدوار التي كانت للاتينية، لتبقى العربية والأمازيغية تتنافسان على المشهد اللغوي، ونتج عن احتكاكهما ظهور العاميات المغاربية، وهو ما جعل محمد شفيق يصف الدارجة المغربية بأنها مجال توارد بين الأمازيغية والعربية (شفيق محمد، 1999).

استأثر موضوع الكتابة عند سكان شمال إفريقيا قبل الإسلام باهتمام مؤرخي العصر الوسيط. وحسب الحسن الوزان (ليون الإفريقي)، فالمؤرخون العرب منقسمون بين من يعتقد أن الأفارقة كانت لهم كتابة خاصة بهم قبل الإسلام، وبين من ينفي ذلك. وحتى أصحاب الرأي الأخير فإنهم " يعترفون بأن للأفارقة لغتهم الخاصة، لكنهم يستعملون عادة في كتابتها الحروف اللاتينية"(الحسن بن محمد الوزّان الفاسي، ج 1، 1983: 69). ليس هناك أي دليل تاريخي أو أركيولوجي يثبت أن الأمازيغية كتبت بالأبجدية اللاتينية قبل الإسلام، وعدم ذكر الحسن الوزان لأسماء المؤرخين المدافعين عن هذا الرأي يجعلنا غير قادرين على فهم دوافع اعتقادهم لذلك. وعموما، فالمصادر العربية التي أرخت لشمال إفريقيا قبل الإسلام غالبية معطياتها غير دقيقة أو يطغى عليها الطابع الأسطوري، لأن مؤلفيها لم يطلعوا على المصادر الإغريقية واللاتينية التي أرخت للمنطقة (Ghazi Halima, 2000). وعكس هذا الرأي، يخبرنا صاحب كتاب وصف إفريقيا أنه "يذهب فريق من مؤرخينا إلى أنه كانت للأفارقة لغة مكتوبة خاصة بهم، لكنهم افتقدوا هذه الكتابة من جراء احتلال الرومان لبلاد البربر"(الحسن بن محمد الوزّان الفاسي، ج 1، 1983: 69-70). ونعتقد أن هذا الرأي هو الأقرب إلى الصواب وتؤيده الأدلة الأثرية والمعطيات التاريخية. أما الاعتقاد بأن كُتُب الأفارقة التي ذكرها الحسن الوزان أُلِّفت بالأمازيغية (جهادي الحسين،2014: 106) فليس له أي دليل تاريخي، والراجح أن الأمر يتعلق بمؤلفاتهم اللاتينية حول المسيحية، وهي غزيرة، أو بكتب باللغة البونية.

استُعملت الأبجدية العربية لكتابة الأمازيغية[7] منذ مطلع العصر الوسيط. ومن أولى الاستعمالات التي حفظتها التاريخ ما أشارت إليه المصادر من أن زعيم البورغواطين وضع لأتباعه قرآنا

[6] يمكن القول إن كل ما كتبه سكان شمال إفريقيا، وكثير منهم أمازيغ أو من أصول أمازيغية، باللاتينية مابين القرن الرابع والخامس للميلاد يكاد يقتصر على الجانب الديني المسيحي.

[7] سميت الأمازيغية في المصادر العربية لهده الفترة بعدة تسميات منها اللسان الغربي والعجمي والبربري. ونظرا للاختلاف الحاصل بين النظام الصياتي (Phonétique) العربي والأمازيغي، فقد اجتهد في ملائمة الأبجدية العربية للحروف الأمازيغية مثل الزاي المفخمة والكاف.

بالأمازيغية من ثمانين سورة (ابن أبي زرع، الروض القرطاس:166) يرجح أنه كتب بالحرف العربي، مادام أن المصادر الوسيطية ترجمت بعض جمله، كما لم تشر إلى أنه كتب بخط آخر أو أنه غير مُدَوَّن.

تبقى التجربة الموحدية في مجال توظيف اللغة الأمازيغية هي الفريدة طيلة العصر الوسيط (Mehdi Ghouirgate , 2014). ورغم هذه الأهمية، فما ألَّفَه المهدي ابن تومرت، الزعيم الروحي، بالأمازيغية لم يصلنا إلا من خلال الترجمة العربية لبعض متونه. يبدو أن الاهتمام بالأمازيغية ارتبط بالمشروع الديني الموحدي، ويشهد على ذلك جملة الإجراءات التي اتخذها الموحدون في بداية حكمهم من قبيل أذان الصلاة بالأمازيغية وإلقاء خطب الجمعة بها، حتى بالمدن الكبرى مثل مسجد القرويين (رحيمة تويراس،2015: 217-224). والغالب على الضن أن هذا المشروع مرتبط بفترة الزعيم المؤسس، أو ما يسمى بالمرحلة المهدوية، لأننا لم نلمس تناميه في مرحلة الأوج التي وصلت إليها الإمبراطورية الموحدية.

إذا قارنا بين كل من وظيفة التأليف بالأمازيغية عند البورغواطيين والموحدين من جهة، وبين وظيفة الكتابات الليبية (أو أمازيغية العصر القديم) من جهة أخرى، يتبين بشكل جلي أنها في مجملها مرتبطة بالمجال العقدي أو المقدس: ففي ما قبل الإسلام تكاد تكون الكتابة مقتصرة على الجانب الجنائزي، أما مع الإسلام فركز التأليف على موضوعات دينية تتوخى تقريب مبادئ الإسلام إلى فهم العوام من الناطقين بالأمازيغية. الاختلاف الواضح بين ما قبل الإسلام وما بعده أنه طيلة العصر القديم كتبت اللغة الأمازيغية فقط بالحرف الليبي الأصلي ولم تستعمل أيا من الأبجديات المتداولة على نطاق واسع في شمال إفريقيا والحوض المتوسطي بكامله مثل الفينيقية والبونية والإغريقية واللاتينية، بينما في العصر الوسيط استُعملت الأبجدية العربية وحدها لكتابة الأمازيغية.

سيتأكد من جديد طغيان الوظيفة الدينية للتأليف بالأمازيغية مع المخطوطات التي ظهرت بالمناطق الجنوبية من المغرب (بلاد سوس) ما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر للميلاد. تناول علي أمهان في دراسة له سنة 1992 دواعي ظهور التأليف بأمازيغية الجنوب المغربي (تاشلحيت) في هذه الفترة، وتساءل في بداية مقاله عن الدوافع الحقيقية التي جعلت كُتَّاب هذه المنطقة يُؤلِّفون بلغتهم المحلية، فهل هي تعليم أصول الدين الإسلامي أم الرغبة في التعبير كتابة بلغتهم الأم؟ (Ali Amahan,1992 : 437). ولاحظ الباحث بعد تتبعه لظروف تأليف هذه المخطوطات إلى أن غالبية الكتب التي ألفت بتاشلحيت لها طبيعة دينية وألفت خلال فترات الأزمة التي مرت بها بعض الزوايا.وخلص إلى أن " الكتابة بتاشلحيت لم تمُلها فقط، كما نعتقده دائما، الرغبة في تعليم البربر أصول الإسلام، بل كانت تندرج غالبا في إطار استراتجية سياسية واضحة لزوايا المنطقة، سواء عن وعي أو غيره، من أجل تجاوز الأزمات التي كانت تهدد مستقبلها"(Ali Amahan,1992: 443).

تبين الإحصائيات المتوفرة أن المخطوطات الأمازيغية المكتوبة بالحرف العربي تطغى عليها الموضوعات الدينية، وأهمها تلك الموجودة في الخزانات المغربية الخاصة منها والعامة (الگنساني، 2003)، أو التي توجد في مكتبات أوروبية على رأسها مكتبة ليدن بهولندا (المنادي أحمد، 2015) ومكتبة معهد الدراسات والأبحاث حول العالم العربي والإسلامي (IREMAM) بإكس

أون بروفانس (Aix-en-Provence) بفرنسا (Nico van Den Boogert, 1995). ويلخص أحمد المنادي مجالات هذه المخطوطات بقوله: " ارتبطت معظم النصوص والمخطوطات التي ألفها المغاربة الأمازيغ، والتي وصلتنا، بمجالات الدين الإسلامي. ذلك أن النخبة العالمة [...] كانت من صميم المؤسسات الدينية [...] من هذا المنطلق كان التأليف في عمومه يتجه نحو خدمة الأغراض والقضايا الموصولة بتثقيف الناس في حياتهم الدينية [...] ومع أن عملية التأليف لم تتجاوز الإطار الديني، مع بعض الاستثناءات، فإنها تميزت بالتنوع من حيث مجالاتها وقضاياها، وأساليبها" (المنادي أحمد، 2015: 93).

تسمح لنا وثائق أخرى تهم تاريخ الجنوب المغربي، وتحديدا الأطلس الصغير، ما بين القرن 16 للميلاد وبداية القرن الماضي بفهم وظيفة الكتابة في هذه المجالات الأمازيغية، ويتعلق الأمر بالقوانين المكتوبة المنظمة لمؤسسة أكَادير[8]. أقدم هذه القوانين (الألواح) تعود إلى القرن التاسع الهجري وكتبت بلغة عربية ركيكة، لأنها في كثير من الأحيان ترجمة حرفية لمعاني أو مفردات أمازيغية. لكن المهم بالنسبة لموضوعنا هذا أنها تعطي أولوية للشفاهي على الكتابي، لأنها تنص غالبا – وبصيغ مختلقة- على أن " **كل مسألة ليست في هذا اللوح فهي في رأس العمال"** [9] (أنظر الوثيقة 1)، بعبارة أخرى" ما ليس مدونا في هذا القانون، فهو محفوظ في ذاكرة المسؤوليين عن تدبير الحصن". في أبحاثنا الميدانية[10] حول مؤسسة أكَادير غالبا ما يستدل مَنْ استجوبناهم بهذا النص في صيغته الأمازيغية الأصلية " **أَيْنَّ أُورْ إيلّْنْ غْ الّْوحْ هَاتِنْ غْ إكَويَّا نْ إنْفْلاَسْ** "[11]، وذلك لتبيان أهمية الذاكرة في حفظ قانون أكَادير.

استمر التنصيص على هذه العبارة لقرون من الزمن، ومن الصيغ التي وردت به في لوح مؤرخ بالقرن الثالث عشر للهجرة: " **وعقدوا[أهل الحصن] أن ما لم يكن في اللوح كان في رؤوس العمال من مصالح الحصن**". ومعنى هذا أن المكتوب يأتي في درجة أقل مقارنة مع الذاكرة الجماعية الشفوية، فهذه الأخيرة هي المرجع المعتمد رغم أن منطق المجال القانوني يعطي الأولوية للمكتوب. ومما يزيد من أهمية الشفاهي أن الاطلاع على القانون المكتوب مسألة جد معقدة تتطلب إجراءات خاصة، ومخالفتها تترتب عنه عقوبات مالية. وتنص الألواح أحيانا أنه إذا تشبت شخص بالرجوع إلى الصيغة المكتوبة من القانون بدل الرواية الشفوية للحسم في نازلة ما، فالمطلوب منه أن يؤدي مسبقا غرامة مالية، وبطبيعة الحال فالهدف هو ثني الناس عن المطالبة بالإطلاع على الوثيقة المكتوب، ولهذا نص لوح أكادير إغرم[12] مثلا على أن " العمال [المسؤولون عن تطبيق القانون] من جملة اللوح في الحصن"، أي أن قولهم جزء من اللوح المكتوب. ونعتقد أن هذه الوثائق التاريخية لا تسمح فقط بتتبع وظيفة الكتابة في هذه المناطق الأمازيغية، بل تعكس منظور الثقافة الأمازيغية للكتابة[13]، والذي قد يصل إلى مستوى تقديس كل ما

---

[8] أكَادير (ج.إكَودار)، وهي المعروفة بالمخازن الجماعية.كانت القبائل الأمازيغية تخزن فيها ممتلكاتها النفيسة وأقواتها وتخضع لحراسة أمنية مشددة. وهو مؤسسة جماعية تنظمها قوانين، ويعين مجلس تدبير يشرف على تسييرها.

[9] العمال في لغة قانون أكَادير تعني المسؤوليين عن تدبيره، ويسمون بالأمازيغية إنْفْلاَسْ، ومفردها أنْفْلُوسْ.

[10] كل هذه الأبحاث كانت في إطار مجموعة بحث حول إكَودار الجنوب المغربي بدأت عملها الميداني منذ 2009. وتضم كل من أيت عدي مبارك وأسمهري المحفوظ ورامو حسن، هذا الأخير ظل مستمرا مع المجموعة رغم مغادرته للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية والتحاقه بمعهد الدراسات الإفريقية.

[11] “ⴰⵢⵏⵏⴰ ⵓⵔ ⵉⵍⵍⵉⵏ ⵖ ⵍⵓⵃ ⵀⴰⵜⵉⵏ ⵖ ⵉⴳⵢ ⵏ ⵉⵏⴼⵍⴰⵙ”

[12] المقصود هو إغرم الأطلس الصغير الأوسط القريب من مدينة تارودانت.

[13] أحيل هنا على تجربتي الشخصية، والتي أعتقد أنها تعبر بوضوح عن دور الكتاب في الثقافة الأمازيغية. فقد ورثت جدتي من

هو مسطور[14]. كما نصت بعض هذه القوانين العرفية أن من شتم اللوح (الكتاب) أو سبه أو سقط من يديه أرضا فعليه غرامة (أنظر الوثيقة 2). صحيح أن التحذير من التعامل مع القانون المكتوب بهذه الطريقة إنما ينم عن تمرد على قانون الجماعة، لكنه لا تخلو أيضا من دلالات حتى بالنسبة لدور المكتوب في الثقافة الأمازيغية.

بوأت الدراسات للمغرب مركز الصدارة من حيث عدد المخطوطات الأمازيغية المكتوبة بالحرف العربي المكتشفة به. ومع ذلك فوضعية التأليف بالأمازيغية بهذه الأبجدية في مناطق أخرى من شمال إفريقيا والصحراء لا ينبغي تجاهلها؛ أولى الكتابات ظهرت منذ القرن الثالث الهجري في مجال انتشار المذهب الإباضي، خاصة الجنوب الجزائري (لمزاب) وتونس، وجلها لها علاقة بالجانب الديني، والخروج عنه يشكل استثناءا (Djamel Aïssani, 1998). وحتى التآليف الأمازيغية التي ظهرت بمنطقة القبائل بالجزائر نهاية القرن التاسع عشر، فغالبية مواضيعها لم تخرج عن الحقل الديني (Djamel Aïssani et Mechehed, D-E., 2010).

إذا تركنا جانبا التأليف في المجال الديني، نجد أن من الجوانب التي نالت نوعا من الاهتمام هي وضع القواميس الأمازيغية العربية. تعود أولى هذه المعاجم إلى القرن السادس الهجري "معجم ابن تونارت"، تم بعدها في القرن السابع والثامن عشر للميلاد " معجم المارتيني" و"معجم الهلالي" و"المجموع اللائق على مشكل الوثائق" وغيرها (عمر أفا، 2007: 9-11). أما أسباب ظهورها ووظيفتها فيوضحها عمر أفا بقوله"بينما كانت اللغة الأمازيغية –عمليا- هي لغة التدريس والشرح والتعليق لفهم النصوص العربية دونما حاجة إلى استعمال معاجم أمازيغية، وكان الفقهاء والموثقون وممارسو الطب الشعبي قد تشبثوا بالنصوص العربية حفظا واستظهارا في مجال المعاملات، اعتمادا على المعاجم المذكورة [...] وفي هذا السياق ظهرت بعض التآلف المتواضعة بلغة مزدوجة تجمع بين العربية والأمازيغية لسد هذه الحاجة دون التصريح بالجهة التي تقدم إليها هذه التآليف، باستثناء تلك الموجهة للعدول بالتحديد لتوظيفها في كتابة الوثائق العدلية..." (عمر أفا، 2007: 8). هذا الاستنتاج قد لا ينطبق على معجم ابن تونارت الذي ظهر في العصر الموحدي، والذي يبدو أنه يعكس الاهتمام الرسمي الذي حظيت به اللغة الأمازيغية. ويفسر هذا الاهتمام أيضا سبب اعتماد صاحبه على اللسان المصمودي[15] باعتباره لسان القبيلة المؤسسة للدولة، إذا جاز التعبير. والخلاصة أن المعاجم الأمازيغية المعروفة يلاحظ أنها تكاد تخص أمازيغية الجنوب المغربي، وإن اختلفت الأسباب التي كانت وراء هذه الظاهرة.

أمي كتابا من ابنها البكر الذي توفي في بداية السبعينيات من القرن الماضي، وكان رحمه الله تلميذا بالمعهد العلمي بمدينة تارودانت. وقامت الجدة بحفظ الكتاب وتعليقه في سقف غرفتها، وكلما طلبت منها الاطلاع عليه وأنا آنذاك تلميذ في السلك الإعدادي تجيبني رحمها الله أنني لم أبلغ بعد مستواه العلمي لأنه كبير الحجم، وفي الأخير ضاع الكتاب ولا أعرف مصيره.

[14] هناك رأي شائع مفاده أن تقديس المكتوب في الثقافة الأمازيغية جاء بفعل تأثير الثقافة الإسلامية العربية. ونعتقد أننا في حاجة إلى دراسة أنتربولوجية عميقة لهذا الموضوع. في الوسط الأسري الذي تربيت فيه كنا نتلقى تربية تحثنا على تقديس كل ما هو مكتوب وتجنب دَوْسِه أو تخطيه بالأقدام ، حتى و لو كان ورقة كتب بلغة غير العربية. كما أن الكثير من الثقب الموجودة بجدران المنزل نجد بها أوراق مكتوبة، كان الكبار يحرصون على وضعها فيه كلما صادفوها مخافة دوسها. كما كانت أمي تحرص على حرق الأوراق والدفاتر المدرسية التي لم تعد لنا حاجة إليها، وذلك مخافة أن يصيبنا مكروه إن لم نحترمها.

[15] جاءت هذه الفكرة في المحاضرة التي ألقاها الأستاذ مهدي اغويرگات، من جامعة بوردو بفرنسا، بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية يوم الأربعاء 7 يناير 2015 حول موضوع " استعمال اللغة الأمازيغية في العصر الموحدي " (المحاضرة ألقيت باللغة الفرنسية).

في نهاية القرن التاسع عشر سنلاحظ أن التأليف بالأمازيغية بدأ يهتم بمجالات معرفية غير مألوفة من ذي قبل في مقدمتها التاريخ والجغرافيا، لكنها كانت تحت الطلب في إطار المشروع الفكري الإمبريالي الذي كان يتوخى جمع المعطيات عن المجالات الأمازيغية النائية تمهيدا للاحتلال العسكري. يتدرج في هذا الإطار كتاب "أخبار سيدي ابراهيم الماسي" الذي ألّفه فقيه ينحدر من منطقة ماسة بالجنوب المغربي سنة 1834م، بطلب من أحد الدبلوماسيين الأمريكيين المقيمين بمدينة طنجة حيث التقى بالمؤلِّف. والكتاب تطرق فيه صاحبه بإيجاز شديد إلى جوانب من تاريخ سوس خلال القرن التاسع عشر (أفا عمر ، 2004). نفس الظاهرة ستتكرر في مناطق أمازيغية أخرى، ففي 1885م كلف أحد المستعربين الفرنسيين بالجزائر طالبا فقيها من بلاد نفوسة بليبيا، واسمه إبراهيم أوسلمان أشماخي، بتأليف كتاب بالأمازيغية عن المنطقة التي ينتمي إليها، وسماه " يغاسرا- د- يبريدن - د- يدرارن ينفوسن ماويملت – س – تمازيغت "[16]، أي "قصور ومسالك جبل نفوسة". ورغم أن الكتاب لا يتعد ثمانية وأربعون صفحة من الحجم الصغير، إلا أنه مصدر مهم للمهتم بالتاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي لجبل نفوسة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر. (حمام محمد ، 2004: 5-6)

خلاصة

يمكن أن نميز في تاريخ الكتابة بالأمازيغية، أو بالفروع اللغوية الأمازيغية بمفهوم أدق، قبل الفترة الاستعمارية المعاصرة بين مرحلتين أساسيتين، لكل منهما خصائصها :

- المرحلة الأولى تمثلها فترة ما قبل الإسلام، وخلالها كتبت اللغة الليبية (الأمازيغية القديمة) بأبجديتها الأصلية، ولم يُستعمل في تدوينها أيا من الأبجديات المتوسطية المتداولة في مجالها الترابي. وقد ظلت وظيفة الكتابة بهذه الأبجدية طيلة هذه المرحلة مقتصرة على الجانب الجنائزي (الكتابة على شواهد قبور). والمثير للانتباه أن نقود الممالك النوميدية أو المورية التي حكمت بشمال إفريقيا لقرون عديدة لم تنقش عليها حروف هذه الكتابة. كما فضل الناطقون بالليبية التأليف بلغات متوسطية قديمة، مثل البونية والإغريقية واللاتينية، في مجالات علمية حضيت باهتمامهم.

- المرحلة الثانية بدأت مع الإسلام، وكُتبت فيها الفروع اللغوية الأمازيغية بالحرف العربي، وظلت الوظيفة الأساسية للكتابة هي الموضوعات الدينية ذات العلاقة بمبادئ الدين الإسلامي بهدف تقريبها من فهم الناطقين بالأمازيغية. أما التأليف خارج المجال الديني فكان ضئيلا جدا، ولم يحصل فيه تراكم ملحوظ. ولم يظهر التأليف بالأمازيغية في مجالات علمية أخرى (التاريخ مثلا) غير مألوف الكتابة فيها بهذه اللغة إلا بطلب من باحثين أوربيين خلال القرن التاسع عشر.

يظهر جليا أنه منذ العصر القديم إلى بداية الفترة المعاصرة، ظلت الوظيفة الأساسية للكتابة باللغة الأمازيغية مرتبطة بالمقدس والدين. تثير هذه الخصوصية العديد من الأسئلة، من قبيل: ألم يساعد هذا الارتباط الوثيق بين المعتقد والكتابة على التمكين في شمال إفريقيا للغات وافدة باعتبارها لغات الدين مثل اللاتينية والعربية؟ هل لهذا الارتباط علاقة بتقديس الكتابة الذي ما زلنا نلمس تجلياته في الثقافة الأمازيغية؟ لماذا لم تنتج الأمازيغية إرثا مكتوبا يشمل المجالات المعرفية التي استعملت فيها الكتابات المتوسطية القديمة، رغم أن لها أبجدية قديمة؟

[16] "ⵉⵖⵙⵔⴰ ⴷ ⵢⴱⵔⵉⵏ ⴷ ⵢⴷⵔⴰⵔⵏ ⵢⵏⴼⵓⵙⵏ ⵎⴰⵎⵓ ⵢⵎⵍⵜ ⵙ ⵜⵎⴰⵣⵉⵖⵜ"

ما هو واضح أن التأليف بالأمازيغية ظل لقرون عديدة، في عمومه، لصيقا بالمقدس والدين، وهو ما كان له تأثير على المشهد اللغوي بشمال إفريقيا. فمن جهة فتح المجال للناطقين بالأمازيغية للتأليف بلغات غير لغتهم الأم، ومن جهة أخرى يبدو أنه ساعد لغات أخرى على التغلغل في المجالات الأمازيغية، إما باعتبارها لغة الدين أو المستعْمِر. غير أن عوامل أخرى ساهمت بدورها في تنوع المشهد اللغوي بالمنطقة، وفي مقدمتها الهجرات الجماعية التي استقبلتها في عدة فترات من تاريخيها العريق.

البيبلوغرافيا

أفا، عمر (نشر)، 2004، أخبار سيدي ابراهيم الماسي، سلسلة نصوص ووثائق رقم 3 (مركز الدراسات التاريخية والبيئية) منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

بنطالب، علي (2009)، أضواء على مؤسسات التعليم الفرنسية-الأمازيغية خلال مرحلة الحماية، مجلة أسيناكَ ، العدد 2، ص ص 33-40.

تويراس، رحيمة (2015) ، تعريب الدولة والمجتمع خلال العصر الموحدي، منشورات مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات، الدار البيضاء.

جهادي، الحسين (2014)، نموذج المقاومة المغربية في دولة بورغواطة الأمازيغية، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء.

الوزّان الفاسي، الحسن بن محمد (1983) وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ، بيروت.

حمام، محمد (نشر وتعريب)، 2004، قصور ومسالك جبال نفوسة، سلسلة نصوص ووثائق رقم 1 (مركز الدراسات التاريخية والبيئية) منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

الگنساني، أبو زيد أحمد (2003)، "التأليف بالأمازيغية: بيبلوغرافيا انتقائية لمؤلفات أمازيغية بالحرف العربي في منطقة سوس"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، عدد 25، ص ص: 211-230.

المنادي، أحمد (2015)، المخطوط الأمازيغي بمكتبة جامعة ليدن، مجلة أسناكَ، العدد 10، ص ص : 89-100.

شفيق، محمد (1999)، الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.

Amahan, Ali (1993), « l'écriture en Taslhyt est-elle une stratégie des Zawaya », In A la croisée des études Libyco-berbères, Méllanges offerts à Paulette Galland-Pernet et Lionel galand, éd.Geuthner, Paris PP 437- 450

Aghali-Zakara, Mohamed (1993), « les lettres et les chiffres : écrire en berbère », In A la croisée des études Libyco-berbères, Méllanges offerts à Paulette Galland-Pernet et Lionel galand, éd.Geuthner, Paris, PP 141-157

Chabot, J.-B. (1940), *Recueil des inscriptions libyques,* Paris, 1940. (= RIL)

Djamel, Aissani (1998), « les écrits de langue berbère de la collection de manuscrits Ulahbib (Bedjaia) », In Études et Documents Berbères**,** N° 15-16, pp.81-99

Djamel Aïssani et Mechehed, D-E.(2010), Manuscrits de Kabyle : catalogue de la collection Ulahbib, Publication du CNRPAH, Nouvelle série N° 4, Alger.

Euzenat, M. (1971), « Grecs et orientaux en Maurétanie tingitane », Antiquités Africaines 5, PP 161-178.

Ghouirgate, Mehdi (2014), L'ordre almohade (1120-1269). Une nouvelle lecture anthropologique**,** Toulouse.

Ghazi, Halima, Ben Maïssa (2000), « Image ou mirage de la Tingitane à travers les sources arabes médiévales »*, Africa Romana, 14, p. 2185-2266.*

Galand, L. (1966), « Inscriptions libyques », in *Inscriptions antiques du Maroc*, Paris, CNRS.

Gsell, S. (1927), «Juba II, savant et écrivain», In Revue Africaine, 68, 1927, pp : 169-197

Hérodote (1850), Histoires, Livre II, Trad. du grec par Larcher ; avec des notes de Bochard, Wesseling, Scaliger [et al.], Charpentier, Paris. (http://remacle.org/bloodwolf/historiens/herodote/euterpe.htm: février 2015)

Monceaux, P. (1894), les Africains : étude sur la littérature latine d'Afrique : les païens, Paris : Lecène, Oudin.

Nico Van Den Boogert(1995), Catalogue des manuscrits arabes et berbères du fonds Roux, IREMAM, Aix-en-Provence

Pline, l'ancien, (1972), Histoire Naturelle, Livre XVIII, texte établi et traduit et commenté par Henri Le Bonniec, les Belles Lettres, Paris.

Rebuffat, R. (2004), « Le Libyque de bu Njem et le libyque, In début de l'écriture au Maghreb », Publications fondation du roi Abdul-Aziz Al Saoud, Casablanca, PP 55-83.

Rebuffat, R. (1912), *Recueil des inscriptions libyques1940-2012* Supplément à J.B Chabot, (http ://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00841800).Paris.

Rebuffat, R.(2007), « Pour un corpus de bilingues punico-libyques et latino-libyques », dans *Osmose ethno-culturelle en Méditerranée*, Tunis, 2007, p. 183-242.

وثائق

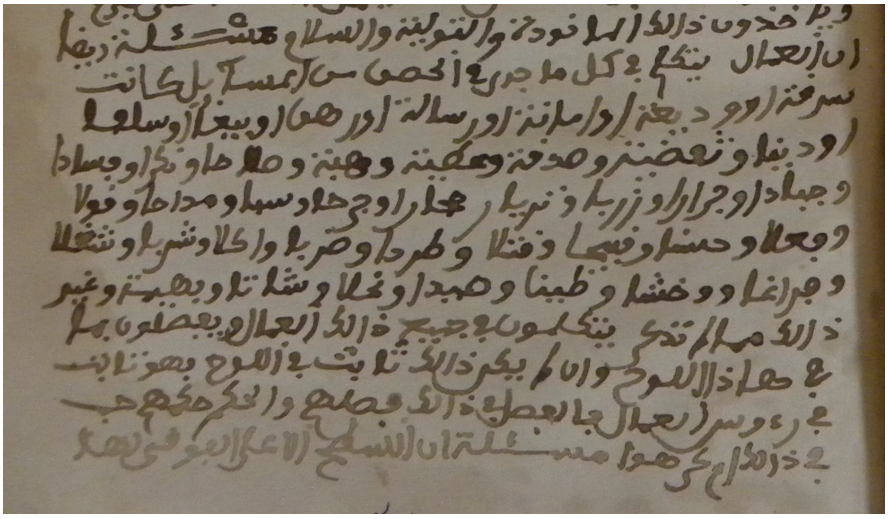

الوثيقة 1. *نموذج من ألواح حصون الأطلس الصغير: أهمية ذاكرة المسؤولين عن التدبير (العُمّالُ) في حفظ القانون.*

"... مسئلة أيضا إن العمال يتكلم [كذا] في كل ما جرى في الحصن من المسائل(...) بما في هاذا [كذا] اللوح وإن لم يكن ذالك [كذا] ثابت في اللوح فهو ثابت في رؤوس العمال فالفصل في ذالك[كذا] فصلهم والحكم حكمهم حب في ذالك [كذا] أم كرهوا"

الوثيقة 2. *مقتضيات تنظم الاطلاع على اللوح المكتوب المنظم للحصن*

"... فنبتد إن شاء الله بوضع العقائد ما يفهم منه نصه من خرج هذا اللوح لبعض الأمناء دون بعض ينصف بخمسين دينارا والخدمة كررت هذا في أول اللوح وكذالك[كذا] من أخرجه وأبرزه للعامة سواء كانوا من أهل الحصن وغيرهم بلا مشورة الأمناء كلهم ينصف بخمسين دينارا ومن وقف ابنه من العمال يقوم مقامه مع العمال ويخرج عليه اللوح وهو في مقام أبيه بلا وكالة ولا امارة..."

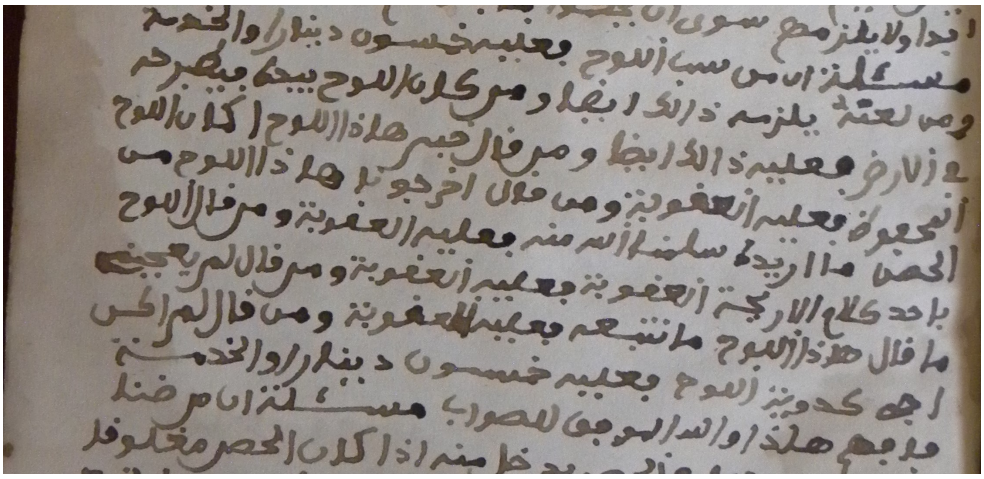

الوثيقة 3. *عقوبات من لم يحترم اللوح المكتوب*

" مسئلة إن من سَبَّ اللوح فعليه خمسون دينارا والخدمة ومن لعنه يلزمه ذلك أيضا ومن كان اللوح بيده فيطرحه في الأرض فعليه ذلك أيضا ومن قال خبر هاذا [هذا] اللوح أكان اللوح المحفوظ[17] فعليه العقوبة ومن قال اخرجونا [كذا]هذا اللوح من الحصن ما أريده سلمنا الله منه فعليه العقوبة ومن قال اللوح باحد كلام الاريحة العقوبة فعليه العقوبة ومن قال لم يعجبني ما قاله هاذا [هذا] اللوح ما نتبعه فعليه العقوبة ومن قال لم أكن اجي كدوبة اللوح فعليه خمسون دينارا والخدمة فافهم هاذا[هذا] والله الموفق للصواب."

[17] ربما معنى الجملة أن من قلل من قيمة اللوح وقال استفهاما " هل هذا اللوح مثل اللوح المحفوظ ".